يوميات المدى في القاهرة

ذكرنا في حلقات سابقة أن الزائر للقاهرة يرى فيها ثلاث مدن، هي الفرعونية والإسلامية والقبطية، وقد تحدثنا عن أجزاء بسيطة للفرعونية والإسلامية ولكننا لم نتحدث عن القاهرة القبطية أو المسيحية،لذا ستكون يوميات المدى بالقاهرة في الجزء الأقدم منها الذي يقع شرق نهر النيل لأن النصف الشرقي لهذه المدينة يحوي تاريخ مدينة المعز لاحتضانه مساجدَ وكنائسَ موغلة بالقدم.
والأثر المهم فيها هو مجمع الأديان أو ما يسمى بالقاهرة المسيحية،التي تروي كنائسها ومتاحفها وحصونها تاريخ الأقباط وأحوالهم على أرض الكنانة، وما شجعني على زيارتها هو وجود الشاعرة والإعلامية العراقية رنا جعفر ياسين التي تقيم في القاهرة، وتسكن حي المعادي القريب من مجمع الأديان الذي زارته أكثر من مرة وهي على دراية بكل شيء فيه، توجهنا إلى المجمع بسيارة زميلتي ودليلتي ومصورتي رنا عند منتصف الظهيرة.

الكنيسة المعلقة اشهر معالم القاهرة

القاهرة القبطية

كنيسة معلقة.. وسقف على هيئة سفنية نوح

□ القاهرة/ يوسف المحمداوي

العراقيون أحسن ناس

ركنا السيارة عند مرآب مخصص لوقوف العجلات وتوجهنا من خلال زقاق لا يختلف عن أزقة الفضل أو عباس أفندي بالضيق وقدم البناء.. ووجدنا أنفسنا في معرض خرافي تجمعت فيه التحف الفرعونية والإسلامية والرومانية والقبطية وكذلك الصناعات المحلية التي تشتهر بها مصر.
تقول السيدة سوزان إبراهيم بائعة في أحد أجنحة المعرض: إن جميع ما موجود فيه هو صناعة مصرية خالصة وهو تابع لدار الآثار المصرية وأثناء عرضها بعض البضائع، سألتنا عن بلدنا فقلنا لها نحن من العراق، فقالت .. يا.. أحسن ناس أنتم مسيح أم مسلمون، كنت فاكره وهي تشير إلى (رنا) بأنها من لبنان وبالفعل شكل شاعرتنا ولبسها وطريقة كلامها وغنجها يشير إلى ذلك، أما أنا فلا شك في هيئتي السومرية الواضحة.. فقلنا لها نحن مسلمون من بغداد وسألناها عن ديانتها فقالت أنا قبطية..
من هم الأقباط؟ تشير الدراسات التاريخية التي قام بها العلماء والباحثون من أمثال انتوني ألكوك والعالم بيتر جردسمان والمهندس مايكل ماليسنون وكذلك البحوث الموجودة في المتحف القبطي ويعززها أحد مرشدي الكنائس إلى أن:
×ما معنى كلمة قبطي؟
إن كلمة (قبطي) مشتقة من الكلمة العربية (قبط) وهذه مشتقة من الكلمة اليونانية (اجيبتوس) بمعنى (مصري)، والإغريق كانوا ينطقونها باللغة المصرية القديمة ((بيت روح بتاح)) وهي تسمية أخرى للعاصمة القديمة (منف) وعرفت في النقوش الآشورية باسم (هيكوبتاه)، وقام اليونانيون بإضافة علامة الرفع من لغتهم والتي هي (وس) على هذا الاسم لتصبح (إجيبتوس) وقد وردت هذه الكلمة كثيراً في شعر هوميروس، أن العرب حين دخلوا مصر تصوروا أن الهمزة في أول الكلمة حرف استهلال فقاموا بحذفها وكذلك علامة الرفع اليونانية في آخر الكلمة، ثم نطقوا الجيم قافاً وأطلقوا على التاء (طا) فخلفت لهم لفظة (قبط) بمعنى سكان مصر، ولكن الاختلاف يكمن كما تقول سوزان.. أن جميع الأقباط هم مصريون ولكن ليس جميع المصريين أقباطا لأنه عندما فتحت مصر من قبل المسلمين عام ٦٤١م، وبما أن ديانة المصريين في ذلك الوقت هي المسيحية فكان يطلق عليهم (الأقباط) .

كنيسة مستقلة عند الغرب

وبعد تحول الكثير منهم إلى الدين الإسلامي صار يطلق عليهم المسلمين أو المصريين، وبذلك أصبحت كلمة قبطي تطلق فقط على المصري المسيحي، وحتى المسيح المتواجدين في أفريقيا كما تقول سوزان يطلق عليهم الأقباط، لأن الكنائس في أفريقيا حتى سبعينيات القرن الماضي تابعة لبطريرك الإسكندرية، وبما أن الكنيسة المصرية قطعت علاقتها بالغرب والقسطنطينية التي كانت تتواجد فيها المرجعية المسيحية منذ عام ٤٥١م، فقد سمّي العصر الذي استقلت فيه الكنيسة المصرية بالعصر القبطي.
خرجنا من معرض التحف ودخلنا معرض الكتب وعيوننا تبحر في محيط هائل من مرتكزات تاريخ لا يندثر، حصن بابليون، الكنيسة المعلقة، المتحف القبطي، كنيسة القديسة العذراء والشهيدة (دميانة) والشهيدة بربارة، وكنيسة الشهيد العظيم مارجرجس، وقيصرية الريحان ودير البنات، المعبد اليهودي (معبد بن عزرا) وتحتار حقيقة إلى أية تحفية تلتفت وبأي تاريخ تغوص.. ومع سحر المكان كان هناك سحر الإنسان في السائحات القادمات من كل حدب وصوب..

المسيحية جاءت من فلسطين

لم تمنعني شيبتي ولا الحياء من زميلتي عن أن التفت إلى غزالة أوروبية داخل كنيسة أو مذبح ولم يمنعني سحر المكان والإنسان أيضاً أن أردد ما قاله الجواهري في منفاه وهو يتغزل بإحداهن..

هدي المسيح على العيون طفا وطافا
ودم الصليب على الخدود يرتشف ارتشاف

نعم يرتشف ارتشافا يا أبا فرات، سأبحر اليوم مضطرا في عالم الكنيسة المعلقة لأنها ذكرتني بلا شك في الجنائن المعلقة في بابل..
إحدى المرشدات المصريات التي تتواجد داخلها لشرح كل مرفق في هذا المتحف والمعبد الديني في نفس الوقت، تقول دخلت المسيحية إلى مصر قبل ألفي عام حيث هربت العائلة المقدسة من فلسطين ووصلت إلى مصر عبر الصحراء، وكان سبب هروبها هو ما قام به الملك (هيرودس) الذي أخبرته العرافة بأن طفل سيولد في بيت لحم اسمه (المسيح) وسيأخذ الحكم منه، فقام بقتل أطفال بيت لحم، فهربت العوائل المسيحية إلى أرض مصر عبر صحرائها إلى الصعيد حتى الدلتا وتحولت جميع أماكنها تلك إلى أديرة وكنائس ودور عبادة.

٢٦٢٦ كنيسة في مصر

وحسب كتاب كما تقول المرشدة يتداول بين الكهنة بعنوان دليل الكنائس يشير إلى أن عدد الكنائس الأرثوذكسيين بلغ ألف و ٣٢٦ كنيسة، فيما يبلغ عدد الكنائس البروتستانتية (١١٠٠) كنيسة أما الكنائس الكاثوليكية فمئتان،ما يعني أن عدد الكنائس في مصر ٢٦٢٦ كنيسة، الحصة الأكبر للقاهرة، وتشكل الأقباط في مصر ١٠٪ من مجموع سكان القاهرة، أي ثمانية ملايين نسمة تقريباً، وهي شبه قليلة إذا ما قورنت بعدد الكنائس والأديرة باعتقادي.
وحين يخلب لب القلب سحر المكان لا بد أن تلتفت باتجاه المفجوعة بكنائسها بعد ان هجر الإرهاب حوالي نصف أحفاد آشور من أرضهم، أصبحت الكنائس نقاط تصويب لأمراء الفتنة وجرذ الكهوف التي لبست ادعاءً وزيفاً رداء الإسلام وهو منهم براءً، تذكرت الأحد الدامي في تموز ٢٠٠٩، يوم مجزرة الكنائس حيث استهدف الإرهاب كنيسة ماريوسف غرب بغداد، وكنيسة مريم العذراء في شارع فلسطين، وكنيسة ماركوركيس في حي الغدير، وكنيسة القلب الأقدس، ومار بطرس، ومار مرتي، ومار يوسف في نفق الشرطة، وحي الوحدة وساحة التحريات نعم في يوم واحد.. ولا أدري لماذا هذا الاستهداف المنظم للكنائس والمسيحيين الذي بدأ منذ عام ٢٠٠٤، حيث استهدفت كاتدرائية سيدة النجاة في الكرادة، ليتكرر المشهد المأساوي في أبشع جريمة عرفتها الإنسانية في هذه الكنيسة العام الماضي، حين دخلها مسلحون ليقتلوا المصلين فيها، وإلى الآن والقتلة لم ينفذ فيهم حكم الإعدام.

شيّدت فوق حصن بابليون

يذكر أن عدد الكنائس في بغداد فقط يبلغ ٦٥ كنيسة، معظمها تعرض للتفجير، الأهم من ذلك ما دام الإصغاء أبكم، تقول دليلتنا إن هذه الكنيسة تسمى أيضاً باسم السيدة العذراء والقديسة دميانة وسمّيت بالمعلقة، لكونها شيدت فوق الحصن الروماني المعروف باسم حصن بابليون، حيث تم وضع أخشاب النخيل مع طبقة من الأحجار فوق اسطوانات الحصن، لتكوّن أرضية الكنيسة، ولذلك كانت الكنيسة المعلقة هي الوحيدة من بين جميع الكنائس التي لا تحتوي على قباب، وإنما لها سقف خشبي على شكل سفينة نوح التي هي أحد الرموز التي تشير إلى الخلاص، وعمر الكنيسة يعود إلى أواخر القرن الثالث الميلادي، لكن الباحثين قاموا برفع عينة من قطع خشب النخل المكونة لأرضية الكنيسة، فقدر عمرها في معمل القاهرة لتاريخ الآثار حوالي ١٥٠ عاما قبل الميلاد.

اقرعوا يفتح لكم

تقع الكنيسة المعلقة بشارع مارجرجس في منطقة (قصر الشمع) بمصر القديمة، أو ما يسمى بمجمع الأديان، ومدخلها باب خشبي كبير حوله إطار حجري منقوش يعلوه صليب كبير وتحته مجموعة من الصلبان المتراصة بجوار بعضها بأسلوب فني رائع وخطت في أعلى الباب الخشبي جملة باللغة العربية (سلوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم) التفت القلب صوب ساستنا وأنا أناجي السيد المسيح قائلاً: يا سيدي المسيح سألناهم وما أعطونا غير الوعود، وطلبناهم لنجدتنا من جور الطاغية فما وجدناهم ألا أشباهاً له، وقرعنا أبواب ضمائرهم فأوصدوها بأقفال لأزمات أخرى.
يبلغ طول الكنسية (٣،٥٢) متر، وعرضها ١٨،٥ متر، وبارتفاع ٩،٥ متر، والداخل لها يشعر بأنه داخل متحف كبير للأيقونات التي هي عبارة عن رسوم تؤرخ المراحل التاريخية التي شهدتها الديانة المسحية في مصر ففيها (١١٠) أيقونات، يعود تاريخ أقدمها للقرن الثامن الميلادي، وان كان اغلبها يرجع إلى عام ١٧٧٧ ميلادي.

لغزُ الأرقام في المسيحية

في البداية تجد الصالة المكشوفة التي تملأ جدرانها الرسوم الجدارية الرائعة ثم تليها الصالة المغطاة حيث يجهز المصلي نفسه بالأفكار الخشوعية حتى يتهيأ للدخول إلى صحن الكنيسة، وتوجد داخل هذه الصالة أربعة أبواب، اثنان منها جانبيان يؤديان إلى الدور العلوي الذي كان قديماً مخصصاً للنساء، وهناك بابان آخران في الواجهة الحجرية والتي من خلالهما يصل الزائر الى صحن الكنيسة، وينقسم الصحن إلى أربعة أقسام يفصلها عن بعضها ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية، وتعد من أقدم الآثار الباقية حتى الآن، وجميعها من الرخام باستثناء عمود واحد، هو من حجر البازلت، ويلاحظ الزائر أن هناك عددا كبيرا من الصلبان الغائرة في الأعمدة، ورصت الأعمدة على ثلاثة صفوف، الأول بثمانية أعمدة، أما الثاني فثلاثة فقط، والصف الثالث بثمانية أعمدة أيضاً، ولهذه الأعمدة وعددها إشارات في الكتاب المقدس. فالعمود رقم واحد: يشير إلى الله الواحد، والثاني إلى عمل المسيح في مصالحة الأرضيين من السمائيين، والثالث يشير إلى الثالوث المقدس، والرابع يشير إلى وجود الله في جميع الجهات، والخامس يشير إلى عمل الإنسان من خلال حواسه الخمس وأصابعه الخمس، والسادس يذكر بأن الله خلق العالم في ستة أيام، والسابع هو رقم الكمال، أما الثامن فهو ما بعد الكمال أي الخليقة الجديدة، وكأن المعنى المقصود من وجود ثمانية أعمدة من كل جانب ان الجالسين في الجانبين الأول والثالث هم من الخليقة الجديدة التي أساسها الإيمان بالثالوث الأقدس، ويشار إليه بالأعمدة الثلاثة الموجودة في وسط الكنيسة.

١٥ عموداً من الرخام

المنجلية: هي كلمة قبطية لمكان قراءة الكتاب المقدس، والمنجليتان الموجودتان أمام كل هيكل، واحدة لقراءة الإنجيل باللغة العربية، والأخرى بالقبطية، والمقاعد التي يجلس عليها الزائرون صنعت من الخشب المخروط، وما زالت محتفظة بطابعها الأثري، وتأتي شهرة هذه الكنيسة من نقل الكرسي المرقسي من مدينة الإسكندرية لها ،حيث أصبح الأب البطريرك يقيم فيها.
ويذكر كتاب أسبوع القبطيات الرابع إن قداسة البابا ميخائيل قد عقد اجتماعاً مع الأساقفة عام ٧٥٥ بمقر الكنيسة. أمام الهيكل الأوسط في الصحن يوجد المنبر الذي يرتكز على (١٥) عموداً من الرخام ويسمى المنبر بالأنبل.
وتوجد في الأنبل العديد من النقوش ذات المعاني العميقة مثل الصليب الذي يشير إلى الآلام والدائرة التي حول الصليب تشير إلى الاضطهادات وحصار المؤمنين، أما القاعدة المكونة من ثلاثة أجزاء تشير الى الثالوث الأقدس، والثالوث: مصطلح يطلق على طبيعة الله الثابتة المثلثة الأقانيم، وتعني أن الرب كائن له ذات، ناطق له كلمة وحي له روح، والاقوم صفة ذاتية ثابتة في طبيعة الله. كما ذكرنا أن هناك بحدود (١١٠) أيقونات، ولا يمكن أن تأتي على ذكرها جميعاً ولكن من أهمها أيقونة القديسة دميانة والأربعين عذراء حولها.

معجزة الشهيدة دميانة

ولدت الشهيدة دميانة في أواخر القرن الثالث الميلادي في زمن الملك دقلديانوس الكافر، وإنها تعتبر من المعجزات كونها تعرضت لأبشع صنوف التعذيب كتمشيط جسدها بآلات،وتدليكها بالخل والقير،وضربها بالحديد ثم وضعوها بالزيت المغلي، وقلع عينيها، ومن ثم ألقي بها للوحوش ومع ذلك كان الرب يشفيها ويجعل الوحوش أليفة معها، وبسبب قوة إيمانها قام الملك المذكور بقطع رأسها مع أربعين من العذارى التي معها. بنيت لها كنيسة بمدينة دمياط في القرن الرابع لكنها دمرت في القرن الثامن،بعدها قام البابا ميخائيل ببنائها، وعندما خرب البناء أيضاً تم نقل رفاتها إلى الكنيسة المعلقة ثم أعيد مرة أخرى إلى ديارها بالزعفران في مدينة دمياط، أما الأيقونة الأخرى المهمة هي أيقونة الشهيد مارجرجس المولود سنة ٢٨٣ ميلادية، وقد أغضب الملك دقلد يانوس بدفاعه عن المسيحية والمسيحيين، وقد تبعته ابنة الملك وزوجته اللتان آمنتا بالمسيح، فأمر دقلديانوس بقطع رأسه مع زوجته وابنته فنالوا الثلاثة إكليل الشهادة ٧٠٣ ميلادية.

ما بين الموسيقى القبطية والفراغية

والثالثة، أيقونة القديسة جوليانا التي ولدت في بداية القرن الثالث واستشهدت سنة ٢٣٧ م ، في عهد الإمبراطور مكسيميانوس مع القديسة برباره، وجاء أحد المؤمنين واخذ الجسدين ولفهما ووضعهما في مكان جوليانا،ثم نقلا إلى كنيسة القديسة برباره، وهناك مجموعة من الإيقونات في أعلى الحائط، وهي أيقونة السيدة العذراء مريم، ورسم أمامها ملاكيْن، هناك أيقونة للسيدة العذراء، وهي تحمل السيد المسيح وأيقونة صغيرة للقديسة كاترين، وأيقونة القديسة برباره التي ولدت عام ٢٢٠ م واستشهدت سنة ٢٣٧ في عهد الإمبراطور مكسيميانوس. بعد خروجك من مجمع الكنائس ستكون مرغماً على الاستماع إلى موسيقى الكنيسة والتي تدخل فيها آلتان فقط هما، المثلثات والصنج ويغلب على الموسيقى الصوت البشري، وتؤدى معظم الطقوس الكنيسة بمصاحبة الترانيم، على نفس نمط الطقوس الفرعونية في معابدهم، وأحد مظاهر التشابه هو ما يعرف باسم (كيردنومي) أي استعمال اليدين لضبط الإيقاع، واتبع معهد الدراسات القبطية كما يقول احد موظفي الكنيسة هذه الطريقة في التدريس

الهوسات المسيحية

وتوجد طريقة أخرى أيضاً موروثة عن الموسيقى الفرعونية، وهي استعمال (الفوكاليز)، وهي نوعية من الغناء تقوم على النطق الصوتي وليس على الكلمات، وهذا ما يعطي خصوصية للموسيقى القبطية، يذكر أن الكهنة المصريين كانوا يمجدون آلهتهم بترتيل سبعة أصوات متتالية، وهي ما تسمى بصلوات الافخار سيتا (التناول)، التي تشابه إلى حد ما النثر الموزون، ويحتوي القداس الإلهي على مزامير وابتهالات للرحمة، وثيودوكسيات(ترانيم مديح السيدة العذراء مريم) وأغلبها مأخوذة من المزامير والإنجيل وتسمى بالابصاليات ومعناها بالقطبي(بصالموسى) بمعنى مزمور،والبعض الآخر تسمى الهوسات وهي مأخوذة من الكلمة القبطية (هوس) وتعني "تسبيح"، وفي كل يوم لهم هوسة خاصة أو تسبيحة خاصة منظمة وملحنة ، لا تتجاوز مقاطعها السبعة أبيات تتخللها لازمة في كل مقطع.
مثلاً في يوم الاثنين والأربعاء يرتل لحن (آدام) وفي الخميس والأحد يرتل لحن (واطس)، وتتخللها الحان مرتجلة في بعض الأحيان.
عندما خرجت وأنا اسمع الهوسات لم أجد هوسة أو تسبيحة أثلج بها آتون جزعي على مدينتي على أخوة لي من أحفاد حضارة عظيمة، أصبحوا كالغجر منتشرين بخيامهم في هذا العالم، لكني لم أجد غير حلم تقمصته لأصرخ محرفاً ما غناه ناظم الغزالي من (حادي العيس).

لما علمت أن الناس قد رحلوا
وراهب الدير بالناقوس منشغل
شبكت عشري على رأسي وقلت له
يا راهب الدير هل لعراقنا أمل
فحنّ لي وبكى، وأنّ لي وشكا
وقال لي يا فتى ضاقت بك الدولُ
إن النذور اللواتي جئت تطلبها
قد تأتي بالغد تبكي دم من رحلوا

توجد طريقة موروثة عن الموسيقى الفرعونية، وهي استعمال (الفوكاليز)، نوعية من الغناء تقوم على النطق الصوتي وليس على الكلمات

تقع الكنيسة المعلقة بشارع مارجرجس في منطقة (قصر الشمع) بمصر القديمة، أو ما يسمى بمجمع الأديان، ومدخلها باب خشبي كبير حوله إطار حجري منقوش يعلوه صليب كبير وتحته مجموعة من الصلبان المتراصة بجوار بعضها بأسلوب فني رائع وخطت في أعلى الباب الخشبي جملة باللغة العربية (سلوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم)

المحرر يجلس بباب الكنيسة

مكتبة الكنيسة تضم الاف المجلدات